كلمة سيادة المطران بول-مروان تابت
مطران كندا للموارنة

في جنازة الخوري بولس عنيد
السبت ١٧ تشرين الأول ٢٠٢٦
قرنٌ من الإيمان والخدمة والفكر والرجاء

إخوتي الكهنة، أخواتي الراهبات،
أعزّائي ...
أيها الاهل والاصدقاء،

أيها الأحباء،

كلّفني فشرّفني صاحب الغبطة والنيافة، أبينا السيد البطريرك مار بشارة بطرس الراعي الكلّي الطوبى أن أرأس بإسمه دفنة الخوري بولس عنيد، وأن أنقل اليكم: الزوجة العزيزة سعاد عون، والأبناء الأعزاء جو وجورج وبيار ومارون ولورا وكليمانس وريتا ونينا وعائلاتكم، والأحفاد وعائلات الأشقاء والشقيقات ولسيادة أخينا المطران شربل عبدالله، راعي أبرشية صور المارونية وإكليروسها، وأبناء العيشية، تعازيه الحارّة ومرافقته لكم في مصابكم بالصلاة والطلب الى رب العلى أن يستقبل الخوري بولس في أخداره السماوية ويكافيه المكافأة التي يستحقها على خدمته الكهنوتية وتربيته لعائلة مسيحية مارونية صالحة.

نجتمع اليوم لنودّع أبينا الخوري بولس عنيد. نقف عند ذكرى انتقاله لنقرأ في حياته صفحةً من صفحات الأمانة للإنجيل، ولنتأمّل في ما يستطيع إنسانٌ واحد أن يتركه من أثر حين يجعل حياته في خدمة الله والإنسان والوطن.

إنّ بعض الأشخاص يمرّون في الزمن، فيما يتركون وراءهم ما يتجاوز حدود أعمارهم؛ لأنّ قيمة الحياة لا تُقاس بعدد السنوات وحده، بل بما أُودع فيها من محبّة، وما أُنجز خلالها من رسالة، وما أُثمر من خير في حياة الآخرين. ومن هذا المنظار، تبدو حياة الخوري بولس أكثر من سيرة كاهن معمّر؛ إنّها مسيرة إنسان جمع في شخصه الصلاة والفكر، والرعاية والقيادة، والوفاء للجذور والانفتاح على العالم.

ونحن، إذ نستحضر اليوم ذكراه، لا ننظر إلى الموت بوصفه الكلمة الأخيرة في الحكاية. فالإيمان المسيحي لا يُنكر ألم الفراق، ولا يطلب منّا أن نتجاوز الحزن كأنّه لم يكن، بل يدعونا إلى أن نرى الحزن في ضوء القيامة. فالزمن، الذي يبدو لنا محدودًا ومجزّأً، هو في يد الله أوسع من حساباتنا، والحياة التي نراها تنتهي عند عتبة الموت ليست محصورة بما تدركه عيوننا. إنّ الله يرى ما وراء الضعف والشيخوخة والألم، ويرى في المسيح ابنه، المنتصر على الصليب، بذور الحياة الجديدة التي لا يطفئها الموت.

*** حياةٌ اتّسعت لأكثر من رسالة**

وُلد الخوري عنيد في مطلع القرن العشرين، وعاش حتى بلغ المئة من العمر، حاملاً في سنواته الطويلة تاريخًا من الإيمان والعمل والعطاء.

فقد كان كاهنًا خدم المذبح والرعية، وأديبًا أغنى المكتبة العربية بكتاباته، ومفكّرًا سعى إلى التوفيق بين أسئلة العقل ونور الإيمان، ورجلًا في الشأن العام حمل مسؤولية بلدته "العيشية" على مدى أكثر من سبعة وثلاثين عامًا في رئاسة بلديتها.

ولا تكتمل صورة الخوري بولس عنيد من دون التوقّف عند عائلته الكبيرة، التي شكّلت جزءًا أساسيًا من حياته ومسيرته. فقد جمع في شخصه بين رسالته الكهنوتية ومسؤوليته العائلية، وعاش دعوته في إطارٍ من المحبّة والعطاء والالتزام. وكانت عائلته، بما تضمّه من أبناء وأحفاد وأجيال متعاقبة، امتدادًا حيًّا لقيمه وإيمانه، وحلقة وصلٍ بين جذوره في العيشية وحضوره في بلاد الاغتراب، ولا سيّما في كندا.

وقد توزّعت خدمته الكهنوتية على عدد من الرعايا في لبنان والخارج، من العيشية، مسقط رأسه، إلى علما الشعب والكفور وعاريا وكفروة، وصولًا إلى أوتاوا في كندا.

لم يكن المذبح بالنسبة إليه موضعًا يؤدّي فيه واجبًا دينيًا فحسب، بل نقطة انطلاق نحو الناس؛ فالليتورجيا التي يحتفل بها الكاهن تجد امتدادها الطبيعي في البيت الذي يزوره، والمريض الذي يعزّيه، والعائلة التي يسندها، والإنسان الذي يحتاج إلى كلمة حقّ أو لمسة رجاء.
لقد فهم الكهنوت بوصفه أمانةً يومية، لا لقبًا يُحمل، وبوصفه علاقةً حيّة مع الله تنعكس في علاقة صادقة مع الإنسان.

*** حكمةٌ تقرأ ما وراء الظاهر**

تميّز الخوري بولس بحكمة تجمع بين الخبرة وسرعة البديهة، وبين عمق التأمّل وخفّة الروح. ومنذ بداياته، حمل اندفاعًا واضحًا إلى العمل والمبادرة. بدأ بشجاعة، وتابع بصبر، وثابر رغم الصعوبات. وهنا تكمن إحدى دلالات سيرته: فالدعوة لا تُختبر في اللحظات التي يشتعل فيها الحماس، بل في السنوات التي تتطلّب أمانةً ثابتة، حين يصبح الوفاء أصعب من البداية.

*** العيشية في قلب الذاكرة والرسالة**

لم تكن العيشية بالنسبة إلى الخوري بولس مجرّد مسقط رأس أو عنوانًا في سجلّ حياته؛ كانت انتماءً ومسؤوليةً وذاكرة. وقد حمل همومها في قلبه، وجعل من خدمتها امتدادًا طبيعيًا لخدمته الكهنوتية.
فعلى مدى أكثر من سبعة وثلاثين عامًا في رئاسة بلديتها، جمع بين مسؤوليته الروحية ودوره في الشأن العام، وسعى إلى خدمة البلدة من خلال الاهتمام بشؤونها الإنمائية والاجتماعية والتربوية، وبمستقبل أجيالها الصاعدة.

وكانت العيشية أيضًا حاضرة في ذاكرته الأدبية، ولا سيّما في كتابه «ملحمة العيشية»، الذي وثّق فيه أحداثًا أليمة من تاريخ البلدة. لقد أدرك أنّ الذاكرة مسؤولية، وأنّ الكتابة قد تصبح شكلًا من أشكال الوفاء، حين تمنح الشهادة صوتًا، وتحوّل الألم إلى معرفة، وتحفظ للتاريخ أمانته.

*** الراعي الذي جعل القرب أسلوب حياة**

ولا تُقاس الرعاية الكهنوتية بعدد العظات التي تُلقى أو الاحتفالات التي تُقام وحدها، بل، بقدرة الراعي على أن يكون حاضرًا في حياة الناس، وأن يصغي إلى ما يقولونه وما يعجزون أحيانًا عن التعبير عنه.

وفي هذا القرب، تظهر صورة الخوري بولس الراعي الذي عرف قيمة الكلمة الصادقة، والزيارة في وقت الشدّة، والمواساة التي لا تحتاج إلى خطب طويلة. فقد كانت الرعاية، في معناها الأعمق، أن يشعر الإنسان بأنّه ليس متروكًا وحده أمام مرضه أو حزنه أو حيرته. من هنا، كانت خدمته امتدادًا لإيمانه لا نشاطًا منفصلًا عنه. فالإنجيل الذي أعلنَه من على المنبر أصبح حنانًا في التعامل، وأمانةً في المسؤولية، ومصالحةً بين المتخاصمين، واحترامًا لكرامة كلّ إنسان.

وهكذا، يصبح الراعي علامةً على حضور الله بين شعبه، لا لأنّه كامل أو معصوم من الضعف، بل لأنّه يضع ما لديه من وقت وخبرة ومحبة في خدمة الآخرين.

*** من المحنة إلى الرجاء**

لا يمكن أن ننظر إلى حياة امتدّت قرنًا كاملًا من دون أن ندرك أنّ طول العمر لا يعني غياب الألم، وأنّ كثرة الإنجازات لا تعفي الإنسان من مواجهة الهشاشة البشرية. فكلّ حياة تحمل أفراحًا وامتحانات، ولحظات امتلاء وأوقاتًا يضيق فيها الأفق.

وهذا الرجاء ليس تفاؤلًا عابرًا، ولا محاولةً لتجميل الواقع، بل ثمرة الثقة بالمسيح الذي اجتاز الموت وفتح فيه طريق الحياة. لذلك، لا يُنكر المؤمن جراحه، لكنه لا يسمح لها بأن تكون خاتمة قصته.

وفي سيرة الخوري بولس، نستطيع أن نتأمّل في معنى المثابرة عبر الزمن، وفي قيمة الاستمرار في الخدمة رغم تغيّر الظروف والأجيال. فالإيمان الذي ينضج مع السنين لا يصبح مجرّد ذكرى جميلة، بل يتحوّل إلى قدرة على منح الآخرين كلمةً تسندهم، وخبرةً تنير لهم الطريق، وشهادةً تقول إنّ الرجاء ممكن حتى عندما لا تكون الإجابات كاملة.

*** من ذكرى الإنسان إلى وعد القيامة**

أيها الأحباء،

لقد بلغ الخوري بولس عنيد مئة عام من العمر، لكنّ الاحتفاء بهذه المئوية لا ينبغي أن يتوقّف عند الرقم. فالمئة عام تكتسب معناها من الحياة التي امتلأت بها: سنوات من الصلاة والخدمة، ومن الكتابة والتأمّل، ومن المسؤولية تجاه العيشية وأبنائها، ومن التواصل مع الكنيسة والإنسان أينما وُجد.

لقد اجتمعت في سيرته وجوه متعدّدة: كاهن وقف عند المذبح، وراعٍ رافق المؤمنين، وأديب حفظ الذاكرة بالكلمة، ومفكّر سعى إلى فهم الإنسان، ورئيس بلديةٍ حمل همّ بلدته. وهذه الوجوه، على تنوّعها، تلتقي عند حقيقة واحدة: أنّ الإيمان يصبح أكثر صدقًا حين يتحوّل إلى خدمة.

ومع ذلك، فإنّ تكريمنا له لا يكتمل بمجرد تعداد إنجازاته، ولا بمجرد استعادة محطات حياته. إنّ الوفاء الأعمق لذكراه هو أن نسأل أنفسنا: ماذا نأخذ من هذه المسيرة إلى حياتنا؟ كيف نجعل إيماننا أكثر صدقًا، وخدمتنا أكثر أمانة، وكلامنا أكثر حكمة، وعلاقتنا بالآخرين أكثر رحمة؟ وكيف نحفظ ذاكرة أهلنا وبلداتنا من دون أن نعيش أسرى الماضي، بل أن نجعل منها قوةً لبناء المستقبل؟

إنّ كلّ ذكرى صادقة ينبغي أن تتحوّل إلى مسؤولية. فالأجيال لا تحتاج إلى أن تعرف أسماء الذين سبقوها فحسب، بل إلى أن تكتشف ما الذي جعل حياتهم ذات معنى، وما الذي تستطيع أن تستلهمه من شهادتهم في عالمها المتغيّر.

أما نحن، الذين نودّعه بالإيمان والصلاة، فنحزن، لأنّ المحبة تجعل الفراق مؤلمًا؛ لكنّنا نرجو، لأنّ المسيح القائم من الموت جعل الرجاء أعمق من الحزن، والحياة أوسع من حدود القبر.

لذلك، حين نصلّي من أجل راحة نفس الخوري بولس، فإنّنا لا نكتفي باستذكار ما قدّمه في الماضي، بل نضع حياته بين يدي الله، ونجدّد إيماننا بالوعد الذي يجمعنا جميعًا: أنّنا في المسيح مدعوّون إلى خليقة جديدة، وأنّ المحبة التي تنبع من الله لا تُختزل في سنوات العمر، بل تجد كمالها في الحياة الأبدية

فلترقد نفسه بسلام المسيح، وليبقَ من سيرته ما يستحقّ أن يستمرّ: أمانة الكاهن، ووفاء ابن العيشية، وفضول المفكّر، وصدق الكاتب، وروح المسؤولية، وشجاعة الرجاء.

ولنحمل نحن بدورنا الشعلة التي تسلّمناها، كلٌّ في موقعه، وكلٌّ بحسب الدعوة التي أُعطيت له؛ لأنّ أفضل تكريم لمن عاش حياته في خدمة الآخرين هو أن نتابع نحن أيضًا مسيرة عطائه.

المسيح قام... حقاً قام!

بكل تقديرٍ ووفاء، نتقدّم بإسمنا وبإسم أخينا سيادة المطران شربل عبدالله، راعي أبرشية صور المارونية ولفيف كهنة الأبرشيتين بهذا التكريم: الصليب الأبرشي الذهبي، تخليدًا لذكرى الفقيد واعترافًا بما قدّمه من عطاءٍ وإخلاص. نسأل الله أن يتغمّده بواسع رحمته، وأن يجعل أثره الطيّب باقيًا في قلوبكم وقلوب كلّ مَن عَرفَه.